فلسفة الدين بين الحقيقة والمجاز

Philosophy of religion between reality and metaphor

أ.م.د. إحسان علي الحيدري
كلية الآداب / جامعة بغداد
Assistant Professor Dr. Ehsan Ali Al-Haidari
College of Arts / University of Baghdad

ملخص البحث:

نسلط في هذا البحث الضوء على فلسفة الدين من حيث كونها مجالا معرفيا حقيقيا أم يطلق هذا المصطلح مجازاً على موضوعات معينة ، وفيه نتناول البحث عن نشأة مجال فلسفة الدين، وتاريخ ظهور المصطلح، ثم ننتقل الى بيان حقيقة فلسفة الدين من خلال التعرف على حقيقة مفهوم الفلسفة ومفهوم الدين، ثم إيضاح حقيقة فلسفة الدين كمجال معرفي مستقل، بعد ذلك نتوجه الى توضيح الفرق ما بين الدين والفلسفة، وتسليط الضوء على أهم الموضوعات التي يتناولها فيلسوف الدين في مجال بحثه، والعلوم التي يستفيد منها في دراسته، ثم نتوجه صوب موضوع بيان الفرق بين فلسفة الدين وعلم الكلام؛ لنتوصل بالنتيجة النهائية الى حقيقة فلسفة الدين، وكونها تمثل مجالاً من مجالات الفلسفة التي لها استقلالها من حيث الموضوعات التي تتناولها والعلوم التي تستفيد منها والمنهج والأدوات التي تستعملها، ونصل بالنتيجة الى كونها تمثل الدراسة العقلية النقدية للموضوعات الدينية.

Research Summary:

In this research, we focus on philosophy of religion in terms of being a real knowledge field or the term is metaphorically referred to certain subjects، in which we cover the emergence of the field of philosophy of religion،

and the history term appearance، then we turn to declaration of the fact of the philosophy of religion through the identification of the reality of the concept of philosophy and the concept of religion، And then clarify the fact of the philosophy of religion as an independent knowledge field، We then turn to clarify the difference between religion and philosophy، And to focus on the most important subjects addressed by the philosopher of religion in the field of research، And the sciences that benefit him in his studies، And then go towards the subject of the difference between the philosophy of religion and theology; To reach the end result of the fact of philosophy of religion، As it represents a field of philosophy that has its independence in terms of subjects covered, and the sciences that benefit from them and the methods and tools that use them، The result is that it represents the critical mental study of religious subjects.

المقدمة:

الكثير من القرّاء والنقّاد يخلط بين فلسفة الدين ومجالات معرفية أخرى، فمنهم من يخلط بين فلسفة الدين وعلم الكلام، ومنهم من يعتقد أن فلسفة الدين معنيّة بعلم تاريخ الأديان، ومنهم من يعتقد أن فلسفة الدين متمثلة بالعلاقة التاريخية بين الدين والفلسفة، وآخرين يذهب فكرهم عند ورود مصطلح "فلسفة الدين" الى الفلسفة الإسلامية، أي الى الفلسفة الدينية الجزئية، وغير ذلك من الاعتقادات غير الصحيحة، وهناك من يعتقد عدم جواز إطلاق مثل هذا المصطلح على مجال معرفي معين؛ لكون منهج الفلسفة هو المنهج العقلي، ومنهج الدين هو المنهج الإيماني، ولا يمكن أن يجتمع المنهجان ضمن مجال معرفي معين، وهذا يؤدي الى أن إطلاق هذا المصطلح على مجال معرفي مستقل ـ بحسب اعتقادهم ـ يعد مجازاً وليس حقيقة؛ لذلك ارتأيت في بحثي هذا تسليط الضوء على حقيقة فلسفة الدين من حيث كونها مجالاً معرفياً، متى بدأ، وما هي موضوعاته، وما نوع العلاقة بين الفلسفة والدين، وهل هناك فرق بين فلسفة الدين وعلم الكلام، وأي العلوم التي بالإمكان الاستفادة منها في مجال فلسفة

الدين، وهنالك نقطة مهمة أود الإشارة إليها قبل الدخول في خضم البحث العلمي، تتلخص في أن "الدين" المقصود به ضمن مصطلح "فلسفة الدين"، ليس ديناً محدداً مثل الدين الإسلامي أو المسيحي أو بقية الديانات السماوية، ولا الديانات الوضعية مثل البوذية والكونفوشيوسية وغيرها، بل المقصود بهذه المفردة، الدين من حيث هو دين، أي الدين بالإطلاق، الدين الكلي، وليس الدين الجزئي المعني بديانة محددة.

نشأة مجال فلسفة الدين وظهور المصطلح:

شقّت فلسفة الدين طريقاً مستقلاً عن باقي مجالات الفلسفة في نهايات القرن الثامن عشر، وتحديداً مع صدور كتاب "الدين في حدود العقل وحده"، لمؤلفه الفيلسوف الألماني كانط؛ فأصبحت مبحثاً معرفياً منفصلاً له حدوده ومناهجه وموضوعاته، لكن لا شك في أن جذور هذا المبحث ومقدمات انبثاقه بشكل متكامل بدأت قبل ذاك الوقت، إذ سبقت هذا التاريخ مناقشات عدة لكثير من موضوعات فلسفة الدين، لكنها لم ترتقِ لانبثاق فلسفة للدين متكاملة العناصر والأركان، ومحكمة المنهج تعتمد على العقل وحده، وبعيدة عن الانحياز أو الدفاع العقائدي، ولا سيما أن كانط عمل على فحص الحقائق الدينية فحصاً عقلانياً حراً، وحلل الدين تحليلاً نقدياً من حيث هو دين، وتجنب طرق الكلام وأغراضه، وقدّم تفسيراً عقلانياً نقدياً للدين بشكل كلي من منظور العقل النظري والعقل العملي، وأخضع فيه المعتقدات الدينية والعلاقة بين الإنسان والله كما يقدمها الدين للبحث الفلسفي المستفيض، محكّما المعايير العقلية وحدها، أما زمن ظهور مصطلح "فلسفة الدين"، فعند تقليبنا لصفحات كتب التاريخ الفلسفي، نجد أن أول ظهور رسمي له كان على يد تلامذة الفيلسوف الألماني هيجل، حينما نشروا محاضراته المعنية بهذا المجال سنة ١٨٣٢ بكتاب تحت عنوان "محاضرات في فلسفة الدين"، وبعدها توالت المؤلفات التي تحمل اسم "فلسفة الدين" أو تشتمل على موضوعات تتعلق بفلسفة الدين[١].

ما هي حقيقة فلسفة الدين:

قبل التطرق الى التعرف على حقيقة فلسفة الدين، علينا أولاً التطرق الى التعرف على حقيقة الفلسفة من حيث ارتباطها ببقية المعارف أولاً، وحقيقة الدين ثانياً، ثم ننتقل بعدها الى الحديث عن حقيقة فلسفة الدين، وكيف نصوغ تعريفاً لهذا المجال المعرفي الجديد بظهوره، القديم بجذوره.

إن الفلسفة بمعناها العام تمثل النظرة النقدية تجاه جميع الأنشطة والمعارف؛ من أجل التوصل إلى مفاهيم نظرية، وممارسات عملية أصوب وأفضل لهذه الأنشطة والمعارف، والفلسفة ليست مرتبطة بالدين وحده، بل بحياة الإنسان اليومية، وبكل أنشطته العلمية والسياسية والفنية وما إلى ذلك، وهي تطرح أسئلة بشأن الدين، وما يتعلق بباقي الأنشطة الإنسانية، وهذه الأسئلة تفتح المجال لانبثاق فلسفة الدين وفلسفة الأخلاق وفلسفة العلم وغيرها، فكما أن فلسفة الدين تطرح أسئلة بشأن الدين، وتحاول الإجابة عنها من غير أن تحل محله أو تؤدي وظيفته، كذلك الحال مع بقية الأنشطة الإنسانية، وكما أن ممارسة الإنسان للدين من شأنها أن تحصل على نحو أفضل إذا هو ربطها بالمسائل الفلسفية في هذا النطاق، كذلك الحال يكون عند ممارسته للأخلاق والسياسة والعلم والفن أفضل في حال أدرك طبيعة النشاط الذي يمارسه، وعلاقته ببقية مجالات الحياة، وكما أن فلسفة الجمال لا تعنى بهذا الخط الفني أو ذاك وتحاول تبريره، وفلسفة السياسة لا تربط نفسها بنظام معين، بالنتيجة يمكن القول إن فلسفة الدين ليست فلسفة هذا الدين أو ذاك، لكنها فلسفة الدين بوصفه ديناً، ومن هنا كان لابد لفيلسوف الدين من دراسة مجموعة من العلوم المرتبطة بالدين؛ لمعرفة ما يمارسه الناس في حضارات مختلفة باسم الدين، ومنها نتوصل إلى أن عمل فلسفة الدين هو تحديد نطاق الدين ومنطقه، وهذا غير مقصور على فلسفة الدين، بل يشمل باقي الأنشطة الإنسانية، ففلسفة العلم تعنى بتحديد منطق العلم ونطاقه، وهذا يسري إلى باقي الأنشطة الإنسانية الأخرى، وقد حدد بعضهم نطاق الدين هو ما يتجاوز الطبيعة، ومنطقه بما يتجاوز العقل، وما إلى ذلك من آراء متعددة[٢].

أما الدين فنجد حقيقته متعلقة بالعلاقة ما بين طرف سام وطرف أدنى، وتختلف وجهات النظر بشأن هذا المفهوم؛ لذا سأحاول التقاط بعض التعريفات المختلفة بحسب اختلاف المنهج، لكي نحدد بعدها حقيقة مفهوم الدين، ومن تلك التعريفات:

١. تعريف وليم جيمس[٣]:

يرى جيمس أن الدين «هو الأحاسيس والخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم، وما تقود إليه من تصرفات، وتتعلق هذه الأحاسيس والخبرات بنوع من العلاقة، يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعدّه إلهياً»[٤].

٢. تعريف دوركايم[٥]:

أما دوركايم فيصرح بأن «الدين مجموعة متماسكة من العقائد والعبادات المتصلة بالأشياء المقدسة ـ مميزة وناهية ـ بحيث تؤلف هذه المجموعة في وحدة دينية متصلة كل من يؤمنون بها»[٦].

٣. تعريف كانط[٧]:

في حين نجد كانط يعتقد بأن: «الدين هو معرفة الواجبات كلها بوصفها أوامر إلهية»[٨].

٤. تعريف الطباطبائي[٩]:

أما الطباطبائي فيرى أن: «الدين يمثل مجموعة من العقائد والأحكام العملية والتعاليم الأخلاقية التي جاء بها الأنبياء عن الله؛ لهداية البشر»[١٠].

٥. تعريف وايتهيد[١١]:

وأخيراً يصرح وايتهيد: «إن الدين عيانٌ لشيء يقوم في ما وراء المجرى العابر للأشياء المباشرة أو خلف هذا المجرى أو في باطنه، شيء حقيقي، ولكنه مع ذلك لا يزال ينتظر التحقق، شيء هو بمثابة إمكانية بعيدة، ولكنه في الوقت نفسه أعظم الحقائق الراهنة، شيء يخلع معنى على كل ما من شأنه أن ينقضي ويزول، ولكنه مع ذلك يندّ عن كل فهم، شيء يعد امتلاكه بمثابة الخير الأقصى، ولكنه في الآن نفسه عصيّ بعيد المنال، شيء هو المثل الأعلى النهائي، ولكنه في الوقت نفسه مطلب لا رجاء فيه»[١٢].

مما سبق نجد أن الدين على الرغم من وجود اختلاف في فهمه نتيجة اختلاف المنهج الذي يعتمد عليه العالم أو الباحث أو الفيلسوف، إلا أن الجميع يرتكز على مجموعة من المبادئ الأساسية، فلو تفحصنا التعريفات السابقة، سنجد أن تعريف وليم جيمس يركّز على أحاسيس الفرد ومشاعره، فضلاً عن تفكيره وسلوكه، وأن الدين يمثل علاقة ثنائية بين طرف سامٍ والإنسان، أما تعريف دوركايم، فنجد أن المنظار المستعمل في هذا التعريف يركز على أنماط سلوك مجموعة من الأفراد وتفكيرهم، والدين عنده يمثل علاقة ثنائية بين مجموعة من الأفراد والمقدس، وقد أُحلّ مفهوم المقدس محل مفهوم الإله؛ لإكساب التعريف طابعاً شمولياً، وليس لازماً أن يكون

المقدس إلهاً أو كائناً أسمى من الإنسان، وأن الرمز المقدس يوحّد كل من يتصل به في إطار قيمي مشترك.

عند الانتقال الى تعريف كانط نجده يركز على الجانب العملي من الدين، ولا سيما الشق السلوكي، وأن النظرة الأخلاقية في تعريفها للدين لا تقتصر على الفرد أو المجموع، بل تشملهما معاً، في حين أن تعريف الطباطبائي يعبّر عن الخطاب الموجّه من الله إلى البشر عن طريق الوحي وبوساطة النبي، وتوضيحه بأن الدين يشتمل على جانبين: نظري وعملي، الأول يختص بالتصورات الفكرية للعقيدة، والثاني يختص بالممارسات العملية للعقيدة، وأن الجانب العملي من الدين يشتمل على شقين: الأول يتمثل بالممارسات التعبدية والأحكام العملية، والثاني يتمثل بتهذيب السلوك الإنساني، وأخيراً حين التوجه صوب تعريف وايتهيد نجده يركز على العلاقة بين اللامتناهي أو القوة التي تحكم الكون والإنسان، وأن سبب جهل الإنسان بماهيّة القوة التي تحكم الكون؛ كونها عصيّة على الدخول إلى مجرى فهمنا العادي، ويكون التركيز فيه على الجانب النظري من الدين، بل على الشق المجرد منه تحديداً، وترك بقية المعارف الفكرية التي يشتمل عليها هذا الجانب.

إن سبب عدم الاتفاق على تعريف مفهوم الدين هو خضوعه لرؤية واضع التعريف، فهناك من يعرّفه منطلقاً من إيمانه بعقيدةٍ ما، وهناك من يصدر عن منطلق إلحادي، وهناك من يريد أن يكون منطلقه على وفق رؤية عقلية محايدة، لكن حتى هذه الدراسة العقلية سوف يجد القائم عليها وجود أكثر من منظار لرؤية الدين من خلاله، فثم المنظار النفسي والمنظار الاجتماعي والمنظار الفلسفي، ومع ذلك نجد هذا الباحث بغض النظر عن النتيجة التي سوف يتوصل إليها، يحاول أن يبتعد عن النزعة الذاتية.

ومع كل ما تم ذكره من فروقات إلا إننا نعثر على مجموعة من المبادئ المشتركة التي يمكن التعويل عليها في صياغة تعريف عام للدين، وهي[١٣]:

١. الإيمان بوجود قوة غيبية تحكم هذا الكون تتمثل بالإله الواحد أو بمجموعة من الآلهة تعلو عليه أو تسري في هذا العالم أو تتجلّى في إحدى الظواهر الطبيعية أو تتجسّد في أحد الكائنات المشخّصة.

٢. الدين يعبّر عن علاقة ثنائية بين تلك القوة الغيبية والإنسان الفرد أو مجموعة من الأفراد.

٣. يتكون الدين من مجموعة معارف فكرية تمثل الجانب النظري، ويطلق عليها اسم العقائد، ومجموعة أخرى من الممارسات العملية تمثل الجانب العملي، ويطلق عليها اسم العبادات.

٤. يشتمل الجانب النظري على الأسس الفكرية لدينٍ ما، ويتضمن إعطاء رؤية كونية بشأن هذا العالم من حيث النشأة والمصير، وبشأن طبيعة القوة الغيبية التي يؤمن بها، وما شاكل ذلك من أمور عدة تختلف من دين لآخر.

٥. يشتمل الجانب العملي على الأحكام الدينية والتعاليم الأخلاقية التي تنظم شؤون الأفراد المنتمين لتلك الديانة فيما بينهم، فضلاً عن بيان الطقس العبادي الذي عن طريقه تمتد الصلة الروحية بين الفرد أو الجماعة وتلك القوة الغيبية.

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع رسم صورة عامة للدين متمثلة بالتعريف الآتي: الدين يمثل علاقة بين طرفين، أحدهما كائن اعتيادي (الإنسان)، والآخر كائن مقدس (القوة الخفيّة التي تحكم الكون وتؤثر فيه)، وتشتمل هذه العلاقة على جانبين: أحدهما نظري يشتمل على المعارف الفكرية التي تؤسس عليها هذه العلاقة، والآخر عملي يشتمل على الأحكام العملية التي تضم الممارسات التعبدية والمعاملات والتعاليم الأخلاقية، وتؤثر هذه العلاقة الثنائية في كل الذين ينتمون إليها تأثيراً فردياً وجمعيًّا[١٤].

نعود الآن للتعرف على حقيقة فلسفة الدين بعد أن تعرفنا على حقيقة مفهوم الفلسفة، ومفهوم الدين، فنجد أن فلسفة الدين تسعى الى الكشف عن الترابط أو التناقض فيما يتعلق بالعقائد الدينية؛ وبتحليل لغتها والمقارنة بينها وبين الاستعمالات الأخرى للغة؛ للتمييز بين مسائل عدة مثل: المنطق والفهم واليقين والصواب والخطأ، فمنطق الدين شيء ومنطق العلوم شيء آخر، ومقاييس الفهم والصواب والخطأ واليقين مختلفة في الدين عمّا هو عليه في العلوم، وتعمل فلسفة الدين على تحليل المفاهيم المتعلقة بالحياة الدينية، ومن هذه المفاهيم المعجزة وقواعد السلوك والعقل والإيمان والتجربة الدينية ونطاق الدين وغيرها، وهذا يحصل بطريقة نقدية من غير تبني أية نظرة لاهوتية أو تاريخية أو شعبية أو حتى فلسفية، وعلى الرغم من أن فلسفة الدين ليست عقيدة، لكن هذا لا يعني أنها غير ذات صلة بالعقيدة الدينية، ويظهر أثر الفلسفة الصحيح في العقيدة عن طريق صياغة عقائدية واضحة وخالية من التناقض أو التعارض، ولا سيما مع الكتاب الذي تعدّه الجماعة الدينية كتاباً مقدساً، وإذا كانت

إعادة صياغة العقائد الدينية مسألة عسيرة، فإن أثر الفلسفة يظهر في فهم تلك العقائد فهماً نقدياً، فيتمثل في البحث عن المعاني الحقيقية الخفية وراء الصياغات الشكلية[١٥].

إن فلسفة الدين تمثل التفسير العقلاني للموضوعات الدينية بالفحص الحر للأديان، والكشف عن طبيعة الدين من حيث هو دين، أي عن الدين بشكل عام من حيث هو منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأمور مقدسة، ومن حيث هو نمط للتفكير في قضايا الوجود، وامتحان العقائد والتصورات الدينية للألوهية والكون والإنسان، والبحث في الطبيعة الكلية للقيم والنظم والممارسات الدينية، ونمط تطور الفكر الديني عبر التاريخ، وتحديد العلاقة بين التفكير الديني وأنماط التفكير الأخرى؛ للوصول إلى تفسير كلي للدين يكشف عن منابعه في العقل والنفس والطبيعة وأسسه التي يقوم عليها، وطبيعة تصوره للعلاقة بين المتناهي واللامتناهي، والمنطق الذي يحكم نشأته وتطوره واضمحلاله. وتستعين فلسفة الدين لتحقيق ذلك بمنجزات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل علم النفس الديني وعلم الاجتماع الديني وعلم أنثروبولوجيا الدين وعلم الظواهر الدينية وعلم تاريخ الأديان وعلم الأديان المقارن، لكنها لا تقبل نتائج هذه العلوم قبولاً مطلقاً، بل تختبرها وتمحصها؛ للتمييز بين اليقيني والمحتمل منها، وتستعين كذلك بنتائج العلوم الطبيعية التي دخلت حيز الثبوت لا التي لا تزال في طور الفروض والنظريات مثل علم الأحياء والفيزياء والفلك وغيرها، وتستعين بها في تقويم العقائد الدينية المتعلقة بطبيعة الإنسان والعالم، وتنتهج فلسفة الدين المنهج العقلاني النقدي في دراسة الدين[١٦].

إن فلسفة الدين هي ذلك الفرع من الفلسفة المختص بالتساؤلات الخاصة بالدين وطبيعة الوجود الإلهي، وفحص التجربة الدينية، وتحليل المفردات والنصوص الدينية، والعلاقة بين الدين والعلم[١٧] ، وهي الدراسة العقلية للمعاني والقضايا التي تطرحها العقائد الدينية، وتفسيراتها للظواهر الطبيعية وما وراء الطبيعة، مثل وجود الله، وقضايا الخلق، والموت والمصير، وتختلف فلسفة الدين عن الفلسفة الدينية من ناحية أنها تطمح الى مناقشة أسئلة تتعلق بطبيعة الدين ككل عوضاً عن تحليل المشاكل المطروحة من نظام إيماني أو معتقد معين، وهي مصممة بطريقة تجعلها قابلة للنقاش من قبل كل من يقدمون أنفسهم كمؤمنين أو غير مؤمنين[١٨].

وقد يثار تساؤل معين في مشروطية أن يكون فيلسوف الدين مؤمناً بديانة محددة أم لا؟ وللإجابة عن هذا التساؤل أدرج الإجابة الآتية[١٩]:

١. يرى بعض الباحثين أنه ليس شرطاً أن يكون فيلسوف الدين شخصاً مؤمناً بعقيدة معينة، بل يمكن أن يكون منكراً لله أو مؤمناً به أو لا أدرياً لأنه يفترض أن يكون غير ملتزم بدين معين؛ لهذا كانت كلمة دين في فلسفة الدين مطلقة وغير مقيدة بدين معين، ومن هذا المنطلق مثلت فلسفة الدين إحدى شعب الفلسفة المضافة، وهذا سبب اشتمالها على أحد الأحكام الكلية الفلسفية، أي تحري الحقيقة والبحث العقلاني الحر؛ لذلك لا ينبغي لفيلسوف الدين من الناحية الفلسفية ومن جهة كونه مقوِّما وناظراً للدين بنظرة خارجة عنه أن يكون ملتزماً أو مؤمناً بالدين موضع دراسته وبحثه.

٢. ويرى باحثون آخرون ضرورة أن يكون فيلسوف الدين شخصاً مؤمناً بعقيدة معينة؛ لأن شخصاً ما إذا أراد التأمل والتفكر بعقلانية من غير أن يمتلك تجربة دينية سيكون غير قادر على فهم الدين، ويعتقد هؤلاء وجوب البحث في فلسفة الدين على أساس التجربة الدينية؛ لأن كل موضوعات فلسفة الدين مثل الإيمان والعبادة والوحي والخلود وغيرها داخلة في التجربة الدينية، والإبهامات المرتبطة بفلسفة الدين تقع فقط حين يستفيد العقل من التجربة الحقيقية في سعيه النقدي للدين، كما يعتقدون أن البحث في الدين على وفق نظرية علمية بالمعنى الدقيق للكلمة غير ممكن؛ لأنه على الرغم من وجود بعض الشبه الظاهري، إلا أن أهداف العلم والدين ومناهجها متفاوتة، ونحن لا نستطيع عن طريق جمع المعطيات وتقسيمها والمقارنة بينها الوصول الى الماهيّة الواقعية للتجربة الدينية؛ لأن أي سعي لتبيين التجربة الدينية وتفسيرها بالتفكيك والتحليل والمشاهدة لن يبتعد عن الأخطاء النفسية.

الفرق بين الدين والفلسفة:

بعد التعرف على حقيقة فلسفة الدين نتوجه صوب تبيان الفروقات بين الدين والفلسفة، وعلى النحو الآتي(٢٠):

١. من حيث الموضوع: توجد موضوعات مشتركة بين الدين والفلسفة تتمثل بمجموعة من الأسئلة التي يحاول كل من الدين والفلسفة الإجابة عنها مثل: السؤال عن أصل الإنسان ومصيره، وعلاقته بالكون الذي يعيش فيه، وطبيعة الله وعلاقته بالإنسان، وخلود النفس، وحرية الإرادة، وعلاقة السلوك الإنساني بالسعادة البشرية وما إلى ذلك، لكن الذي يفصل بين الميدانين هو طريقة معالجة كل منهما للإشكالية المثارة، فضلاً عن أن هناك موضوعات متميزة لكل ميدان مثل: العبادات والمعاملات في ميدان الدين، ومشكلة المعرفة في ميدان الفلسفة.

٢. من حيث المنهج: المنهج الذي يتميز به ميدان الدين هو المنهج الإيماني، وأدواته تعتمد على الوحي والنقل والمكاشفة، ويؤدي النص الدور الرئيس في الدين، أما ميدان الفلسفة فيتميز بالمنهج العقلي، وأدواته التأمل والتحليل والتركيب والاستنتاج على وفق قواعد منطقية دقيقة، ويؤدي الاستدلال العقلي الدور الرئيس في الفلسفة، وهذا يعني أن الدين قد يقبل قضايا معينة على أنها موضوعات للإيمان من حيث كونها تصديقاً، في حين أن الفلسفة لا تقبل ذلك، والإيمان في معناه الشائع هو قبول مجموعة من الحقائق غير المستمدة من المصادر الحسية أو العقلية، والمصدر هنا إلهي أو خارق للطبيعة مثل الكتب المقدسة أو الأحاديث النبوية أو التجارب الصوفية وغيرها، ويستعمل بعض رجال الفكر الديني المنطق والعقل، ويحرزون في ذلك نتائج رائعة عند شرحهم لتفاصيل هيكل التفكير الديني، غير أن المنطق والعقل يستعملان هنا لزيادة أدلة عقلية على ما يقبلونه هم وسائر المؤمنين على أساس الإيمان، والدليل على هذا الأمر أنه في حال ظهور تعارض بين العقل والإيمان فإن الأول سيخضع للثاني سوى بعض المذاهب الدينية، أما الفلسفة فان العقل يحتل فيها مكان الصدارة، ويمكن أن يقال إن الفيلسوف يطلب الرضا العقلي، في حين يطلب رجل الدين الرضا العاطفي.

٣. من حيث المسلّمات المبدئية: يتعامل المفكر الديني مع موضوعات بحثه عن طريق التسليم مبدئياً بأصول عقيدته، أما الفيلسوف فإنه يبذل جهداً لتجنب المسلمات الخفيّة أو اللاواعية؛ لأنه يعتقد أن وجود مسلمات غير معترف بها يمثل إحدى العقبات الكبرى في وجه التفكير الصحيح، أما رجل الدين أو المتكلم فهو لا يفعل ذلك، ومثال على هذا الأمر مشكلة الألوهية ودراستها عند المتكلم، فهو يؤلف الكتب الكثيرة لمناقشة طبيعة الله وعلاقته بالكون والإنسان وما إلى ذلك، ومهما اتسعت المناقشات فإنها تستند في النهاية إلى افتراض أن الله موجود، فهو في بحثه لا يشكك البتة في وجود الله، ويحاول العثور في بحثه على أدلة عقلية للبرهنة على المبدأ الذي يؤمن به.

٤. من حيث الغاية: إن من أهداف الدين إعطاء الإنسان أماناً وإحساساً بالطمأنينة، وهو هدف عملي، أما الفلسفة فمن أهدافها السعي إلى المعرفة من غير الاهتمام بالمصاعب التي تواجه الفيلسوف عند سلوك هذا الطريق وهو هدف نظري؛ لذلك يعد الدين ـ عند الكثيرين ـ أهم من الفلسفة، ولا ريب أن من يكرس حياته للعمل الفلسفي يحرص على إيضاح أن الدافع إلى المعرفة لا يقل تأصلاً في الإنسان عن الرغبة في الحصول على الأمان والطمأنينة الروحية، وأن الدافعين لا يوجدان بالقوة نفسها لدى الناس عامة، فمعظم الأشخاص يرون أن الوعد الذي يقدّمه الدين أقوى

جاذبية بكثير، وهم يشعرون بضرورة حصولهم على ضمان بأن الحياة جديرة بأن يعاش فيها، ويؤمنون بأن الدين قادر على أن يعطيهم هذا الضمان على نحو أيسر مما تقدر عليه الفلسفة؛ لأن الفلسفة إن استطاعت تقديم مثل هذا الضمان فإن ذلك لا يكون إلا بعد تفكير طويل، وفي النهاية نجد الفيلسوف يحاول صياغة فلسفة للحياة تصلح للتطبيق عملياً، إلا أن الناس يدركون أن الفلسفة تهتم بالنظر أكثر من اهتمامها بالعمل، وهم يعتقدون أن الفيلسوف سيواصل تأملاته بالإصرار نفسه سواء أدت هذه التأملات إلى نتائج عملية أم لم تؤد، أما المفكر الديني ـ وإن كان تفكيره يكتسب طابعاً لاهوتياً تجريدياً في بعض الأحيان ـ فإن هدفه الأول يظل دائماً إيجاد الأساس العقلي لنشاط عملي وهو بلوغ سلام الروح وطمأنينة القلب.

موضوعات فلسفة الدين:

ننتقل الآن التي التعرف على أهم الموضوعات التي يتم تناولها في مجال فلسفة الدين، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر[٢١]:

١. تحديد معنى الدين: في هذا الموضوع يتم البحث عن حقيقة الدين من خلال إيجاد صيغة تعريفية شاملة لمفهوم الدين بشكل عام، وما تشتمل عليه تلك الصيغة من جوانب نفسية واجتماعية وأخلاقية وما إلى ذلك.

٢. طبيعة اللغة الدينية: في هذا الموضوع يتم الفحص عن طبيعة اللغة الدينية من حيث تحري مضمون ألفاظها: إن كانت تحمل دلالة معرفية أم أنها فارغة لا تحمل معنى؟ وهل للغة الدينية منطق خاص بها يختلف عن منطق البحث العلمي، ومنطق اللغة الاعتيادية، ومنطق اللغة الفنية والأدبية، وغيرها؟ هل طبيعة قضايا اللغة الدينية إخبارية أم إنشائية؟ هل تحمل تلك القضايا دلالة حقيقية أم دلالة مجازية؟ وهل يستطيع الإنسان المخلوق المحدود بحدود كثيرة أن يعرف الله؟ وكيف يصفه؟ وما هي قيمة توصيفاته؟

٣. نشوء النزعة الدينية: في هذا الموضوع يتم البحث عن أصل الحس الديني لدى الإنسان: إن كان فطرياً أم مكتسباً؟ وإذا كان من النوع الأول: فهل يكون مصدره الله أم أن مصدره شيء آخر؟ وإذا كان من النوع الثاني فما هي أسباب ظهوره: هل هو الخوف أم الجهل أم ماذا؟ وتطرح في هذا المجال نظريات عدة لتعليل ظاهرة التدين، منها ما يصب في الجانب السيكولوجي، ومنها ما يصب في الجانب السوسيولوجي وما إلى ذلك.

٤. التجربة الدينية: في هذا الموضوع يتم التنقيب عمّا يجده المؤمن في نفسه من إيمان بحقيقة متعالية وخضوع وانقياد لها، فما حقيقة هذه التجربة؟ وما مصدرها؟ وما الفرق بين التجربة الدينية والتجربة الأخلاقية؟ وما المعيار في اختبار التجربة الدينية وإثبات صدقها من عدمه؟

٥. علاقة الدين بالمجالات العلمية: يبحث في هذا الموضوع عن مدى التأثير والتأثر المتبادلين بين مجال المفاهيم الدينية ومجال نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، وإمكان التوفيق بين المجالين منطقياً وموضوعياً، وتناقش فيه موضوعات مثل: ما حقيقة المعجزة؟ وما حقيقة وجود عالم آخر تسكنه الملائكة والجن ومخلوقات أخرى؟ وما حقيقة الإرادة الإنسانية؟ وغيرها كثير.

٦. نطاق الدين: في هذا الموضوع يتم التعرف على حدود المجال الديني، هل ينحصر في إطار السلوك الخلقي للفرد والمجتمع، أم يمتد ليشمل نواحي متعددة من الحياة البشرية كالسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك؟ وما تأثير ذلك في الفهم الديني كله؟

٧. عقلانية الدين: في هذا الموضوع يتم التحري عن الطريقة التي يمكن من خلالها إثبات القضايا الدينية، إن كانت عن طريق العقل أم عن طريق الإيمان؟ وما الذي يعنيه كل من التعقل والتعبّد في إطار الدين؟ وهل ثمة اتصال بين الاثنين، وما حقيقته إن كان موجوداً؟

٨. المبادئ المشتركة بين الأديان: يبحث في هذا الموضوع عن إمكان وجود جوهر مشترك بين الأديان والتعرف على حقيقته إن وجد، كذلك يبحث عن المبادئ التي تسري موضوعاتها في معظم الأديان، مثل الألوهية ومشكلة الشر ومصير الإنسان بعد الموت وما إلى ذلك.

العلوم التي يستفيد منها فيلسوف الدين في مجال بحثه:

بالتأكيد لكل مجال معرفي روابط مشتركة مع كثير من المجالات المعرفية الأخرى يتغذى على بعضها، ويغذي بعضها الآخر، وهنا سوف أتطرق الى مجموعة من العلوم التي يستند إليها فيلسوف الدين في مجال بحثه، ومنها:

١. علم النفس الديني:

يدرس هذا العلم الدين من وجهة نظر سيكولوجية، ويعمل على تقصي نوعية الأثر الذي يتركه الدين على نمط تفكير الفرد المتدين وسلوكه، ويناقش الأسباب

الموجبة لاعتناق الإنسان الدين، ويتناول بالتحليل والتعليل والاختبار الديني الواقع المعيشي للإنسان بمفرده، ويحدد هذا الاختبار الديني بأنه مجموع بنى ذهنية ودوافع وأنماط سلوكية ومواقف وتصورات أحدثها الدين في نفسية الفرد؛ من خلال اعتقاده بالله أو ما يعدّه ذلك الفرد إلهاً، وانتمائه إلى المجموعة الدينية[٢٢].

٢. علم الاجتماع الديني:

يعد علم الاجتماع الديني علماً وصفياً تقريرياً، يرمي إلى دراسة المجتمعات الدينية وما تشتمل عليه من نظم وظواهر وعبادات وطقوس دينية؛ لبيان تأثيرها في المجتمع وتأثرها به، وبيان ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون، ويدرس هذا العلم تأثير المؤسسة الدينية والحركات الدينية في المجتمع، كما يدرس تأثير لغة النص الديني في لغات المجتمعات المؤمنة بذلك النص، ويدرس تأثير الدين في تقاليد مجتمع ما وأعرافه وأخلاقه وقوانينه، كذلك يدرس هذا العلم تأثير الدين في الفن الجمعي والجانب الاقتصادي لمجتمع محدد، ولا يهتم علم الاجتماع الديني بالدفاع عن عقيدة دينية محددة أو تبرير طقس ديني لجماعة دينية معينة، بل يحاول أن ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية ويتجرد من النزعة الشخصية، ويعالج الظواهر الدينية بوصفها نظماً اجتماعية لا من حيث مصدرها، وإنما من حيث أثرها في الحياة البشرية، وتأثرها ببقية النظم الاجتماعية القائمة[٢٣].

٣. علم تاريخ الأديان:

يمثل علم تاريخ الأديان دراسة وصفية للأديان في جوانبها التنظيمية والعقائدية والطقسية، ويتناول هذا العلم رواية حركة الأديان وتوضيحها على مر العصور، ويوضح كيفية تطور الأديان المختلفة وتبدلها في أزمنة متفاوتة، ويتحرى العوامل التي أثمرت في رقي بعض الأديان وتطورها، والبحث عن العوامل التي أسهمت في تحجر أديان أخرى وتخلفها، ويعتمد علم تاريخ الأديان على أعداد كبيرة من الآداب والرسوم الدينية والرموز والأساطير والمعتقدات الدينية؛ بوصفها وثائق تدل على الواقعة الدينية، والباحث في هذا المجال يصف الوقائع التاريخية لدين ما أو لمجموعة أديان، من غير المفاضلة بين دين وآخر[٢٤].

٤. علم الأديان المقارن:

يعنى هذا العلم بالدراسة المقارنة الوصفية تارة، وبالدراسة النقدية بين الأديان تارة أخرى، من حيث المعتقدات والرؤى والكتب المقدسة، ويتناول هذا العلم دراسة

ديانات العالم الماضية والحاضرة، وتتوخى هذه الدراسة الديانات في ذاتها، واكتشاف ما بين الأديان من نقاط تشابه واختلاف، واستخلاص مفهوم الدين بشكل عام، وإيضاح السمات المميزة للشعور الديني، ويفحص هذا العلم جميع المعتقدات التي قدمتها المنظومة الدينية بصرف النظر عن منشئها سواء أكان سماوياً أم وضعياً، ويؤدي الى الكشف عن أوجه الشبه والخلاف في تصوراتها بشأن العالم والإنسان والألوهية والمنشأ والمصير وغيرها، ويبحث هذا العلم في نشأة دين ما وارتقائه وانحطاطه، وأشكال تحوله وبقائه أو فنائه، وذلك في إطار الحياة الجماعية، وفي إطار التاريخ المقارن للأديان[٢٥].

٥. علم الظواهر الدينية:

يحاول علم الظواهر الدينية حدس الظاهرة ووصفها كما تبدو لتجربتنا المباشرة، أي وصف طبيعتها وطرق تجلياتها وتعبيراتها عن نفسها، وتركز الظاهراتية على كلية التجلي الظاهراتي في التجربة الإنسانية، والتوجه إلى موضوع بحثها بوصفه أمراً قائماً في ذاته لا يمكن ردّه إلى ظاهرة أخرى تحتويه، وما يميز هذا العلم من غيره، ميله إلى العمومية وتقصيه كل ما هو مشترك وعام بين الظواهر الدينية، واستقصاؤه البنية الجوهرية والمعنى في الظاهرة الدينية من خلال وصف موضوعاتها وتنظيمها، ويتحاشى الظاهراتي فرض أحكامه وقيمه على موضوع بحثه، والموقف الظاهراتي يعنى بالحوادث والخبرات، وتقوم حقيقته على الوقائع لا على الأحكام، ولا يلتفت الباحث إلى ما وراء الظاهرة من محيط وتاريخ، ويحاول الظاهراتي اكتشاف مرتكزات الظواهر الدينية مثل الدعاء والفداء وما إلى ذلك، كما يسعى لاكتشاف مرتكزات الظواهر ذات الصلة بالدين مثل السحر والأسطورة، كذلك يسعى الظاهراتي لاكتشاف العناصر التي يتكون منها الدين، والأمور الثابتة في سائر الأديان أو في دين خاص، وليس بإمكان علم الظواهر الدينية الإلمام بالإلهي إلا عبر الإنسان الذي يمارس الظواهر والأنشطة الدينية، فهي تستطيع تحليل الإجابة التي يقدمها الإنسان عن تجلّي أمر مقدس أو عن تجربة وجودية يحياها، والظاهراتية لا تهتم بالتطور التاريخي، بل تضعه بين قوسين؛ باحثة عن جوهر الأشياء، وهي تروم إرساء معنى كوني، لا تاريخ أديان محدود بمادته في الزمان والمكان[٢٦].

٦. علم أنثروبولوجيا الدين:

يهتم هذا العلم بالبحث عن أقدم الأشكال الدينية التي ظهرت في المجتمعات الإنسانية، وتحري حقيقة المعتقدات التي كانوا يمارسونها ومدى تأثيرها فيهم، كذلك يتقصى هذا العلم إمكان وجود علاقة بين السحر والأسطورة مع الدين، ويهتم علم أنثروبولوجيا الدين بالمقارنة بين الأديان البدائية والأديان المتحضرة من حيث النواحي التطورية، كما يهتم بالعلاقة الجدلية بين التراث المكتوب للأديان العالمية الكبرى والممارسات المحلية لتلك الأديان، ويحاول هذا العلم تقديم رؤية وصفيّة للإنسان من منظور ديني في نطاق مجتمعي محدد، ويدرس جوهر الأديان وفصله عمّا يشوبه من تحريف وتسييس أو استعمال لأغراض ربما لا تكون من الدين في شيء(٢٧).

الفرق بين فلسفة الدين وعلم الكلام:

سبق أن تحدثنا في المقدمة من أن الكثيرين يخلطون بين فلسفة الدين وعلم الكلام لذلك أرى من الضروري أن أعقد مقارنة بين كلا المجالين للتعرف على حقيقتهما ومدى اشتراكهما ببعض المسائل واختلافهما بمسائل أخرى وعلى النحو الآتي(٢٨):

١. تعنى فلسفة الدين بالبحث عن المبادئ النظرية لمعرفة الدين، كما وتهتم بالبحث عن المشتركات بين الأديان، في حين أن علم الكلام في كل دين يهتم في المقام الأول بالدفاع عن أصول عقيدة ذلك الدين بإزاء العقائد الأخرى، ومحاولة تفنيد العقائد المخالفة، فضلاً عن الدفاع عن عقائد فرقة دينية معينة من الفرق المنضوية تحت الدين الواحد إزاء الفرق الأخرى في الدين نفسه.

٢. ليست وظيفة فلسفة الدين دفاعية ولا مشغولة بدين معين دون آخر، بل هي معنيّة بالدين كله من حيث هو دين، وتنطلق من نقطة بدء موضوعية وعقلانية خالصة، أي تبدأ بداية غير منحازة، لكنها قد تنحاز في نهاية التحليل لدينٍ ما بناءً على أسس عقلية محضة؛ لأنها تنتهج المنهج البرهاني، ويتخذ فيلسوف الدين العقل والواقع المتعين معياراً للتمييز بين الحق والباطل، أما علم الكلام فينطلق من نقطة بدء ذاتية تقوم على التسليم المطلق بصحة عقيدة ما؛ لذلك فهو يسير على مبدأ "آمن ثم تعقّل"، ويتخذ المتكلم فهمه للنص الديني معياراً للتمييز بين الحق والباطل، ويكون علم الكلام من بدايته إلى نهايته منحازاً إلى دين معين، وينتهج المنهج الجدلي لتبرير أصول عقيدة ما.

٣. فلسفة الدين تمثل التفكير الفلسفي في الدين، في حين أن علم الكلام يمثل الدفاع العقلاني عن الدين، وهنا يتضح أن الدين في فلسفة الدين يكون في خدمة العقل، أما في علم الكلام فيكون العقل في خدمة الدين.

٤. فلسفة الدين تحاول البحث عن مدى عقلانية المعارف والمعتقدات الدينية بمحاكمة تلك المعارف والمعتقدات، وهنا تمثل فلسفة الدين معرفة بشرية للدين، أما علم الكلام فإنه يؤمن بالمعارف والمعتقدات لدين معين أولاً، وينقلها للآخرين بإثبات عقلانيتها ثانياً، وهنا يمثل علم الكلام معرفة دينية لدى البشر، فنلاحظ أن موضوع فلسفة الدين هو وجود الدين منظوراً إليه فلسفياً من منطلقات خارج إطار الدين بما قد ينتهي الى إثباته أو نفيه، أما موضوع علم الكلام فهو وجود الدين وارتباطه بالمنظومة الوجودية الكونية، إذ يراد إثباته والدفاع عنه من منطلقات داخل إطار الدين مؤسسة على اعتقاد سابق بوجود الدين وأحقيته.

٥. في سياق منهج فلسفة الدين يتخذ العقل موقع الريادة؛ لوجود تلازم قائم بين المنهج العقلي وأي جهد فلسفي، أما العقل في سياق المنهج الكلامي فيتخذ موقعاً ثانوياً؛ لأنه مسبوق بالمعرفة التي مصدرها الوحي ومسخّر لخدمتها، والعقل في فلسفة الدين يجمع في آن واحد بين كونه أداة في الاستدلال والإثبات، وكونه مصدراً في المعرفة الفلسفية التي يفترض أن تكون غير مسبوقة إلا ببديهيات العقل ومسلّماته، أما في الكلام فالعقل محكوم بالنتائج المستمدة سلفاً من الوحي، والمطلوب منه البحث عن المقدمات المفضية إليها، وهنا نجد العقل في فلسفة الدين يمثل العقل التحرري والموضوعي ويوصف بـ"العقل المعرفي"، في حين أن العقل في علم الكلام يكون خاضعاً لمعتقدات لا يمكنه الحياد عنها ويوصف بـ"العقل التبليغي".

الخاتمة:

ختاماً نستطيع أن نقول إن فلسفة الدين تعني الرؤية العقلية النقدية للموضوعات الدينية في محاولة منها لغرس بذرة الوعي الديني على وفق منطق عقلي سليم بما يسهم في التقريب بين الديانات السماوية والوضعية عن طريق إيجاد مشتركات عامة بينها، ولا تحسب فلسفة الدين ضمن المنظومة الدينية على الرغم من أنها تعنى بدراسة الموضوعات الدينية، وإنما تعدّ مبحثاً من مباحث الفلسفة شأنها في ذلك شأن فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال وما شاكلهما، أي أن المادة الأولية تؤخذ من الدين نفسه، لكن الأدوات المنهجية التي تستعمل في تحليل تلك المادة وفهمها تؤخذ من الفلسفة فتنتج حديثاً فلسفياً يبحث في معقولية الموضوعات الدينية، وكيفية إثبات تلك المعقولية.

نلاحظ في بعض التعريفات الاصطلاحية لمفهوم الدين المذكورة آنفاً تركيزاً على الجانب النظري وإهمالاً للجانب العملي، وهناك من ينظر إلى الدين من زاوية محددة بوصفه ظاهرة اجتماعية، ونظاماً تسيّر به الحياة ـ وهو أحد جوانب الدين ـ لكنه يسلب الجانب الروحي الممثل للمحتوى الداخلي للدين، ويجعل من الدين ظاهرة تابعة لثقافة الشعوب، ويلغي الفكرة المحورية التي يستند إليها الدين (مشكلة الألوهية)، وهناك من يقصر تعريفه على الأديان السماوية، ومن يجعل من الدين نزعة ذاتية مقصورة على مشاعر الفرد وصلتها بالإله، وهناك من يحصر الدين في غرفة مظلمة، فلا يرى إلا بفتح نافذة الأخلاق.

نستنتج من المقارنة بين الدين والفلسفة وجود اشتراك بين الدين والفلسفة في نوعية الأسئلة المتناولة، مع وجود اختلاف في كيفية التعاطي مع تلك الأسئلة، ويختلف كل من الدين والفلسفة في نقطة الانطلاق، فالفلسفة تنطلق من الحذر وعدم التسليم بأية فكرة مهما كانت قبل فحصها والشك فيها وضرورة التجرد الكامل، والتخلص التام من الأفكار المسبقة، في حين يبدأ الدين من مسلّمات عقائدية وحقائق إيمانية مصدرها الوحي أو الوضع ولا سبيل للشك فيها، والدين نشاط عملي، أما الفلسفة فنشاط نظري، وإذا كان الدين سعياً للاتحاد بالله، فالفلسفة تحليل لمفهوم الله ومفهوم الاتحاد.

نلاحظ في العلوم التي يستفيد منها فيلسوف الدين في مجال عمله تركيزاً على الجانب الذاتي للدين كما هو موجود في علم النفس الديني، والتركيز على العلاقة الثنائية بين العبد والمعبود، وما لهذه العلاقة من تأثيرات إيجابية أو سلبية في الفرد المؤمن، سواء أكان ذلك في تفكيره الذاتي أم كان في انفعالاته العاطفية أم كان في سلوكه الخارجي، وما يترتب على تلك الآثار ممّا في محيطه الخارجي نتيجة التفاعل المعيشي، وهذه المسائل تنفع فيلسوف الدين بتقويمها على وفق أُسس عقلانية موضوعية، ومن تلك المسائل نشوء النزعة الدينية لدى الإنسان، ومرتكزات العلاقة بين العبد ومعبوده، أما في مجال علم الاجتماع الديني فنجده قد انتهج نهجاً موضوعياً للخروج من الذاتية؛ ورؤية الدين على ما هو عليه على أرض الواقع، ويحاول وصف الوقائع ومعالجتها على ما هي عليه؛ لأنه علم وصفي تقريري، وتكون نظرة هذا العلم بوصفه ظاهرة اجتماعية شأنها شأن بقية الظواهر الأخرى مثل الثقافة واللغة وما إلى ذلك، أي أن الدين انعكاس للمحيط الاجتماعي ومقرراته نسبية تختلف من مجتمع لآخر، ولهذا يلاحظ أن علم الاجتماع الديني حين يود دراسة مجتمع معين لا يغفل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والثقافية التي تتمظهر في ذلك الدين، ومع

ذلك فإن تلك التقريرات الوصفية التي يستخلصها عالم الاجتماع الديني نتيجة دراسته لدين معين تؤمّن لفيلسوف الدين معطيات جديدة، فيبدأ الأخير بتدقيق تلك المعطيات وتقويمها بناءً على معايير عقلانية، وتحري دوافع التغيير في الأديان.

وفي علم تاريخ الأديان وعلم الأديان المقارن نجد أنهما يهدفان إلى بيان تطور المعتقدات والشعائر والمؤسسات لدين معين أو لمجموعة أديان، وهذه كلها تهيئ ساحة نشاط وعمل لفيلسوف الدين؛ كي يبين الجذور والأسس الكلية والمعاني الثابتة للأمور الإلهية أو الأمور القدسية، وكشف علاقة القضية الدينية بالسلوك والآداب والرسوم الدينية وتحليلها بالطريقة العقلانية؛ وعلى هذا الأساس يهيئ علم تاريخ الأديان وعلم الأديان المقارن المادة والمعطيات لفلسفة الدين، وتضع فلسفة الدين الملاكات والمعايير التقويمية والتفسيرات لهذه المعطيات الدينية على وفق نظرية عقلانية نقدية محضة.

أما في علم الظواهر الدينية نجد أن العامل فيه يبحث عن مكونات الدين، وطرق تجليات الظاهرة الدينية، على النطاق الفردي أو النطاق الجمعي، وعلى الرغم من أن الظاهراتي يقدم رؤية وصفية تحليلية لهيكلية كل دين بعناصره ووظائفه، أجده بالمقابل يعمل على إعطاء رؤية وصفية تحليلية للدين كله، ولا شك في أن كل هذه المعطيات ستسهم إسهاماً فاعلاً في تزويد فيلسوف الدين بمعطيات تتعلق بالدين تنفعه في عمله، لكن الأمر سيختلف عند انتقالها من نظرة وصفية عند الظاهراتي، إلى نظرة نقدية عند فيلسوف الدين، في حين نجد في علم أنثروبولوجيا الدين أن العاملين فيه قد أسهموا إسهاماً فعالاً في دراسة نشوء النزعة الدينية، والمعتقدات الدينية لدى الشعوب البدائية، وعلاقتها بالسحر والأسطورة، وهذه المضامين كلها تهيئ أرضية لفيلسوف الدين؛ لدراسة الحس الديني عند الإنسان الأول، وتحليل مفاهيم المعتقدات الدينية القديمة، ومدى تفاعلها مع السحر والأسطورة، وكل ذلك مبني على دراسة عقلانية خالصة.

وعند التمعن في المقارنة بين فلسفة الدين وعلم الكلام نجد وجود اختلاف بين المجالين من حيث الموضوع والمنهج والغاية والمسلمات المبدئية، فمن حيث الموضوع نجد المجالين يشتركان في معالجة مشكلات دينية عدة، غير أن الفرق يكمن في كيفية المعالجة لا في نوعية الأسئلة المثارة، إذ يحاول المتكلم معالجة تلك المسائل في إطار عقيدته، في حين أن فيلسوف الدين يحاول تناول تلك المسائل ضمن رؤية شمولية كلية، أما من حيث المنهج فنلاحظ أن المجالين يستعمل كل منهما العقل في أدواته واستدلالاته، غير أن الفرق بينهما يتجلى في أن العقل في فلسفة الدين يحتل

مرتبة الصدارة، وهو الأداة الرئيسة في تحليل المفاهيم الدينية والحكم على صحة المعتقدات الدينية، في حين نجد العقل يحتل المرتبة الثانية بعد مرتبة النص المقدس، وعلى العقل هنا أن يبذل أقصى ما في وسعه لإثبات صحة المعتقد الديني، وفي حال وقف العقل عند نقطة تصادم مع المعتقد الديني فإنه في مجال علم الكلام يفسح الطريق أمام ذلك المعتقد للمرور، أما في مجال فلسفة الدين فإنه لا يكتفي بسد الطريق على ذلك المعتقد، بل سيسعى إلى دحضه؛ لذلك نجد أن فيلسوف الدين ينتهج الأسلوب البرهاني في معالجة المشكلات الدينية، في حين ينتهج المتكلم الأسلوب الجدلي في المعالجة نفسها، أما الفرق في الغاية فنلاحظ أن الهدف محدد منذ البداية في مجال علم الكلام، ويعمد المتكلم حينها إلى استعمال كل الوسائل الفكرية الممكنة لإثبات هذا الهدف المتمثل بالدفاع عن معتقد محدد، في حين أن الهدف غير واضح المعالم لدى فيلسوف الدين، وقد تؤثر النتيجة النهائية في الرؤية الاعتقادية لفيلسوف الدين؛ ذلك بأن الفيلسوف يسير على منهج عقلاني نقدي من غير فسح المجال لعواطفه بالتحكم في سيره البحثي، وكذلك وجدت فرقاً متميزاً آخر بين المجالين يتمثل في المقدمات التي يعتمدها كل طرف، إذ يعتمد فيلسوف الدين مجموعة من البديهيات العقلية المتفق عليها أصلاً بين العقلاء، في حين يعتمد المتكلم النصوص المقدسة التي يؤمن بها سلفاً.

الهوامش:

١- الخشت (محمد عثمان): تطور الأديان (قصة البحث عن الإله)، ط١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٥١.

٢- صعب (أديب): المقدمة في فلسفة الدين، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٤م، ص (٨٤ - ٨٨).

٣- (وليم جيمس) 1910 - 1842م: فيلسوف أمريكي وأبرز مؤسسي الفلسفة البرجماتية، ومن رواد علم النفس الحديث، له إسهامات مهمة في علم النفس الديني والتصوف، وصف جيمس الدين بأنه تجربة فردية جوهرها العاطفة الدينية لا الطقوس، وأن الشعور الديني شعور باطني بالمشاركة في موجود أعظم، وهو شعور بالانسجام والسلام، وأن الله موجود؛ لأن فرض وجوده نافع، للمزيد يراجع: بدوي (عبد الرحمن): موسوعة الفلسفة، ج١، ط١، ذوي القربى، قم، ١٤٢٧هـ، ص (٤٤٧ – ٤٥٠).

4- James, William: The Varieties of Religious Experience, Published by Arc Manor, Printed in the United States of America – United Kingdom, 2008, p. 31.

٥- (إميل دوركايم) 1917 - 1858م: فيلسوف اجتماعي فرنسي، مؤسس المدرسة الاجتماعية في فرنسا، كان يرى أن الحالات الوجدانية والعاطفية عند البشر لا تأتي من طبيعة الإنسان السيكولوجية كما ذهب إلى ذلك علماء النفس، إنما هي نوع من الشعور الذي ينمو عن طريق التفاعل الاجتماعي بحسب حجم الجماعات البشرية، وبحسب بعدهم أو قربهم من بعضهم، ولمّا كانت هذه الحالات الوجدانية هي من نتائج الحياة في

الجماعة؛ كانت طبيعة الجماعة وحدها من يستطيع أن يفسرها، ويرى أن الدين ظاهرة اجتماعية؛ فينتج أن الأفكار الدينية والطقوس المتعلقة بها ليست إلا رمزاً للعقل الجمعي، وعدّ المجتمع المصدر الوحيد للتجربة الدينية، للمزيد يراجع: الحاج (كميل): الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٠م، ص (٢٢٦ – ٢٢٩).

٦- النشّار (علي سامي): نشأة الدين (النظريات التطورية والمؤلهة)، ط١، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، حلب، ١٩٩٥م، ص ٢٥.

٧- (إيمانويل كانط) 1804 – 1724 م: فيلسوف ألماني، يعد من أهم فلاسفة العصر الحديث؛ لما تمتاز به فلسفته من أصالة الأفكار وعمق المعاني، قسّم العقل الإنساني في كتاباته على قسمين: الأول العقل النظري، والثاني العقل العملي، يعنى العقل النظري بشؤون المعرفة والعلم، وإمكانية تحديد حقيقة الشيء عن طريق التجربة الإنسانية البعدية مع مُعطيات العقل القبلية، وهو في هذا يحاول أن يوفق بين النزعتين العقلية والتجريبية في محاولة منه لبيان قدرة العقل على التفكير في قضايا ما بعد الطبيعة، أما العقل العملي فيعنى بشؤون السلوك الإنساني (الأخلاق)، وعند تحليله للأفعال الخلقية وجد أن صورة الفعل الأخلاقي تكمن في إرادة العمل على وفق الواجب، ولا يعد الفعل خلقياً عنده إلا إذا كان متحرراً من الدوافع والرغبات والميول الذاتية، وأن الخير الأعظم سيتحقق في عالم علوي يحكمه الله، ويعد وجود الله ضرورة يستلزمها العقل العملي حين يعجز العقل النظري عن البرهنة عليه، للمزيد يراجع: بدوي (عبد الرحمن): موسوعة الفلسفة، ج٢، ص (٢٦٩ – ٢٩١).

8- Kant, Immanuel: Religion within the limits of Reason alone, Translated by Theodore M. Greene and Hoyt T. Hudson, Harper and Row, Publishers, New York, 1960, p. 142.

٩- (محمد حسين الطباطبائي) (١٩٠٣ - ١٩٨١) م: عالم دين ومفسر وفيلسوف إسلامي، يلقب بالعلامة الطباطبائي.

١٠-(العلي (أحمد): فلسفة الدين والتديّن، دار الكاتب الإسلامي، بيروت، بلا تاريخ، ص (٢٥ - ٢٦).

١١-(ألفرد نورث وايتهيد) 1947 – 1861 م: فيلسوف ورياضي إنجليزي، يرى أن الله هو المهيمن والمنظم لعالم الإمكان، ولولاه لدبّت الفوضى في كل شيء، وهو العلة الخلاّقة التي ينبثق عنها كل كون، وهو الذي يدفع كل ما تحقق إلى اتخاذ صور وأحداث تتجدد على الدوام، وهو أصل الإبداع في العالم الفعلي، والله في طابعه الأصلي يمثل العلة الكافية للكون المتعالية على العالم، وهو كامل في ذاته، أبدي وأزلي؛ وبذلك لا يشارك مباشرة في صيرورة العالم، غير أن طبيعته لا تقتصر على هذه الصفة الأصلية فحسب، بل إنه يتميز بصفة مثالية لاحقة تتغلغل في العالم، وتتدخل في عملية الصيرورة الخلاّقة، وتتجلى هذه الطبيعة اللاحقة لله في علاقة خاصة قوامها العناية والمحبة، فالله حريص على أن لا يضيع شيء في العالم، وهذا يعني أن وايتهيد قد تصور أن لله طبيعتين: إحداهما أصلية مفارقة للعالم، والأخرى لاحقة داخلة في العالم، للمزيد يراجع: بدوي (عبد الرحمن): موسوعة الفلسفة، ج٢، ص (٥٤٤ – ٥٥٣).

١٢-(ستيس (ولتر): الزمان والأزل (مقال في فلسفة الدين)، ترجمة: زكريا إبراهيم، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م، ص ٣٧.

١٣-الحيدري (إحسان علي): فلسفة الدين في الفكر الغربي، ط١، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٤٥.
١٤-المصدر نفسه، ص ٤٦.
١٥- صعب (أديب): الدين والمجتمع (رؤية مستقبلية)، ط٢، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ص (١٤٨ - ١٥٠).
١٦-الخشت (محمد عثمان): مدخل إلى فلسفة الدين، ط١، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، المغرب، ٢٠١٦، ص (٣٥ - ٣٦).
17- Alston, William: Problems of Philosophy of Religion, "Encyclopedia of Philosophy", Ney York, Macmillan Publishing Co, 1967.
١٨-النشار (مصطفى): مدخل جديد الى فلسفة الدين، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٥٤.
١٩-كاشفي (محمد رضا): فلسفة الدين والكلام الجديد، بحث ضمن كتاب (علم الكلام الجديد وفلسفة الدين)، إعداد: عبد الجبار الرفاعي، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص (٤٢٠ - ٤٢٢).
٢٠-يقارن: جعفر (كمال محمد): الإنسان والأديان (دراسة ومقارنة)، ط١، دار الثقافة، قطر، ١٩٨٥م، ص (١٩٠ - ٢٠٠). مع: ميد (هنتر): الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة: فؤاد زكريا، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩م، (٤٣ - ٤٩).
٢١-يقارن: حب الله (حيدر): علم الكلام الجديد قراءة أولية، بحث ضمن كتاب (علم الكلام الجديد وفلسفة الدين)، ص (٣٩ - ٤٤). مع: شقير (محمد): دراسات في الفكر الديني (فلسفة الدين والكلام الجديد)، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٨م، ص (٦٧ - ٦٨). مع: المحمودي (مجتبى): مدخل إلى الكلام الجديد وفلسفة الدين، بحث ضمن كتاب (علم الكلام الجديد وفلسفة الدين)، ص (٤٠٥ - ٤٠٨).
٢٢-يقارن: كاشفي (محمد رضا): فلسفة الدين والكلام الجديد، بحث ضمن كتاب ((علم الكلام الجديد وفلسفة الدين))، ص ٤٢٦. مع: الخوري (بولس): في فلسفة الدين، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٤. مع: الخشت (محمد عثمان): مدخل إلى فلسفة الدين، ص ٣٦.
٢٣-يقارن: الخشاب (أحمد): الاجتماع الديني (مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية)، ط٣، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٠م، ص (٤٠ - ٤٢). مع: شاهين (مصطفى): علم الاجتماع الديني، ط١، دار إحياء التراث للطباعة، مصر، ١٩٩١م، ص (٣٨ - ٣٩). مع: الخشت (محمد عثمان): مدخل إلى فلسفة الدين، ص ٣٦.
٢٤-يقارن: صعب (أديب): الدين والمجتمع (رؤية مستقبلية)، ص (١٤٦ - ١٤٨). مع: كاشفي (محمد رضا): فلسفة الدين والكلام الجديد، ص ٤٢٥.
٢٥-يقارن: الخوري (بولس): في فلسفة الدين، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٥. مع: جيب: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ترجمة: عادل العوا، ط١، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ١٩٧٧م، ص ٥. مع: الخشت (محمد عثمان): تطور الأديان، ص (٣٤ - ٣٦).
٢٦-يقارن: السواح (فراس): دين الإنسان (بحث في ماهيّة الدين ومنشأ الدافع الديني)، ط٤، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٢م، ص (١٣ - ١٥). مع: مسلان (ميشال): علم الأديان (مساهمة في التأسيس)، ترجمة: عز الدين عناية، ط١،

كلمة والمركز الثقافي العربي، (أبو ظبي - بيروت - الدار البيضاء)، ٢٠٠٩م، ص (١٧٠ - ١٨٥).

٢٧-يقارن: درنوني (سليم): محاضرات مقياس الأنثروبولوجيا الدينية، جامعة تبسة، الجزائر، بلا تاريخ، ص (٦ - ٩). مع: الخطيب (محمد): الأنثروبولوجيا الثقافية، ط٢، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٨م، ص (٥٣ - ٥٧).

٢٨-يقارن: فياض (حبيب): مقاربات في فهم الدين، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨م، ص (١٣٦ - ١٤٦). مع: الخشت (محمد عثمان): مدخل إلى فلسفة الدين، ص ٣٧. مع: المحمودي (مجتبى): مدخل إلى الكلام الجديد وفلسفة الدين، ص (٤٠٣ - ٤٠٤).

obeikandl.com